مانويل كاستيلز والتنظيمات الشبكية

تقديم:

شهدت المجتمعات المعاصرة تحولات عميقة نتيجة الثورة التكنولوجية،خاصة في مجال الاتصال والمعلومات، وهو ما أدى إلى ظهور أشكال جديدة من التنظيم الاجتماعي والاقتصادي، وقد حاول عالم الاجتماع الاسباني "مانويل كاستيلز" تفسير هذه التحولات من خلال مفهوم المجتمع الشبكي، أين اعتبر أن الشبكات أصبحت البنية الأساسية التي يقوم عليها المجتمع الحديث.

ولم يكتف "كاستيلز" بدراسة التكنولوجيا بل سعى إلى تحليل التحولات التنظيمية التي صاحبتها،خاصة الانتقال من التنظيمات الهرمية إلى التنظيمات الشبكية،لذلك فإن دراسة "كاستيلز"تقتضي فهم مساره العلمي والسياق الفكري الذي ظهر فيه،قبل الانتقال إلى تحليل مفهوم التنظيم الشبكي الذي يشكل محور مشروعه العلمي.

أولا: التعريف بالشخصية:

وُلد "مانويل كاستيلز "سنة1942 في اسبانيا، وعاش في سياق سياسي اتسم بالتحولات التي أعقبت الحرب الأهلية الاسبانية، وقد ساهمت هذه الظروف في تشكيل اهتمامه المبكر بالقضايا الاجتماعية والسياسية. تابع دراسته الجامعية في فرنسا حيث تأثر بالتيارات الفكرية النقدية التي كانت سائدة أنذاك، وخاصة الماركسية والبنيوية وقد انعكس هذا التأثير في أعماله الأولى التي ركزت على التحولات الحضرية والصراعات الاجتماعية

(ستالدار،2006،ص 18)،كما شغل عدة مناصب أكاديمية في جامعات عالمية مثل الجامعة المفتوحة في كاتالونيا، وجامعة كاليفورنيا-بيركلي- وقد ساهمت هذه التجارب الأكاديمية في تطوير رؤيته العلمية،حيث أجرى دراسات في أروبا وأمريكا وآسيا،مما سمح له بفهم التحولات الاجتماعية على نطاق عالمي (كاستيلز ولانس، 2003، ص12) ومن أهم مؤلفاته:

- نشوء مجتمع الشبكات The rise Of The Network Society
- قوة الهوية:The Power Of Identity
- نهاية الألفية: End Of Millennium

وقد شكلت هذه الأعمال محاولة شاملة لفهم التحولات التي شهدها العالم نتيجة الثورة الرقمية: (كاستيلز، 1996،ص21) ويعتبر من أبرز علماء الاجتماع المعاصرين- لأنه مازال على قيد الحياة- في مجال دراسة التكنولوجيا والمجتمع، وقد ترجمت أعماله إلى العديد من اللغات ، وأصبحت مفاهيمه جزءا من أدبيات علم الاجتماع المعاصر.

ثانيا: السياق الفكري لظهور كاستيلز:

ظهر فكر "كاستيلز "في سياق تحولات كبرى شهدها العالم منذ سبعنيات القرن الماضي ومن أهمها: الثورة التكنولوجية،انتشار الحاسوب، ظهور الأنترنت والعولمة الاقتصادية. وقد أدت هذه التحولات إلى ظهور نمط جديد من المجتمع يعتمد على المعلومات والتكنولوجيا(كاستيلز،1996،ص32)

كما ارتبط ظهور "كاستيلز" بتحولات علم الاجتماع نفسه؛ حيث بدأ الباحثون يهتمون بدراسة التكنولوجيا وتأثيرها على المجتمع،وبهذا حاول تجاوز التفسيرات التقليدية التي كانت تركز على الاقتصاد فقط من خلال الاستناد على دور المعلومات والشبكات في تشكيل المجتمع.

أما التأثيرات الفكرية فكانت متعددة من أهمها:

- الفكر الماركسي، السوسيولوجية الحضرية، نظريات العولمة، سوسيولوجيا الاتصال

كل هذه التيارات ساهمت في تشكيل رؤيته للمجتمع بوصفه شبكة من العلاقات.

ثالثا:تطور المشروع العلمي لكاستيلز:

إن مشروع "كاستيلز"عرف محطات متعددة إرتبطت بالسياق الاجتماعي العام أكثر ومنها:

1- المرحلة الحضرية: ركز "كاستيلز " في بداياته على دراسة المدينة،حيث أهتم بتحليل التحولات الحضرية وعلاقتها بالبنية الاجتماعية، واعتبر أن المدينة تمثل فضاء اجتماعيا يعكس التغيرات الاقتصادية والسياسية(ستالدار،2006،ص45)

2- المرحلة الانتقالية: في هذه المرحلة بدأ" كاستيلز" يهتم بدراسة التكنولوجيا خاصة دور المعلومات في التنظيم الاجتماعي؛ وقد شكل هذا التحول نقطة انتقال من دراسة المدينة إلى دراسة الشبكات.

3- مرحلة المجتمع الشبكي: تمثل هذه المرحلة ذروة فكر "كاستيلز" ،حيث طور مفهوم المجتمع الشبكي الذي يرى فيه أن الشبكات أصبحت البنية الأساسية للمجتمع الحديث(كاستليز،1996،ص469)

رابعا: مفهوم التنظيم الشبكي عند كاستيلز:

يعتبر مفهوم التنظيم الشبكي من المفاهيم المركزية في فكر" كاستيلز"، حيث يرى أن التحول الساسي الذي عرفته المجتمعات الحديثة لا يمكن فقط في انتشار التكنولوجيا،بل في ظهور نمط جديد من التنظيم على الشبكات بدل البيروقراطيات التقليدية.

1- تعريف التنظيم الشبكي: حسب "كاستيلز" أن الشبكة هي مجموعة من العقد مترابطة،حيث يمكن أن تمثل مؤسسات أو أفرادا أو دولا، وتعمل هذه العقد من خلال تدفقات المعلومات والموارد(كاستيلز،1996،ص470)

2- الشبكات كشكل تنظيمي:يعتبر "كاستيلز" أن الشبكات أصبحت الشكل التنظيمي السائد في المجتمع الحديث، وذلك بسبب قدرتها على التكيف مع التغيرات.

خامسا: من التنظيم الهرمي إلى التنظيم الشبكي:

وفق "كاستيلز" أن التنظيمات التقليدية خاصة في المجتمع الصناعي،كانت تقوم على البيروقراطية والتسلسل الهرمي،حيث تكون السلطة مركزة في القمة وتنتقل الأوامر إلى الأسفل لكن مع ظهور مجتمع المعلومات ظهرت أشكال جديدة من التنظيم تعتمد على: المرونة،التعاون،اللامركزية وتبادل المعلومات.

وقد أدى ذلك إلى إنتقال المؤسسات من البيروقراطية العمودية إلى التنظيم الأفقي(كاستيلز،1996،ص 176)، ويعني ذلك أن التنظيم لم يعد يعتمد على الوظائف الثابتة،بل على المشاريع والشبكات المؤقتة التي تتشكل وتتفكك حسب الحاجة.

سادسا:المؤسسة الشبكية: NET WORK ENTERPRISE

يعد مفهوم المؤسسة الشبكية أحد أهم المفاهيم التنظيمية لدى "كاستيلز"، وقد ظهر بوضوح في كتابهThe Rise Of The Net Work Society،حيث يرى أن المؤسسة الحديثة لم تعد مؤسسة مستقلة،بل أصبحت جزءا من شبكة المؤسسات المتعاونة، وتتميز المؤسسة الشبكية بـ :

- التعاون بين المؤسسات،- الاعتماد على التكنولوجيا،- العمل الجماعي،- المرونة التنظيمية

وقد أصبحت المؤسسات تعمل من خلال تحالفات استراتيجية ومشاريع مشتركة بدل الاعتماد على الانتاج الداخلي فقط(كاستيلز،1996، ص196)

سابعا: خصائص التنظيم الشبكي:

حدد "كاستيلز "مجموعة من الخصائص الأساسية للتنظيمات الشبكية أهمها:

1- المرونة: تتميز الشبكات بقدرتها على التكيف مع التغيرات،حيث يمكن إعادة تنظيمها بسهولة وهذه المرونة تجعل الشبكات أكثر فعالية من التنظيمات التقليدية(كاستيلز،1996،ص 470)

2- اللامركزية: لايوجد مركز واحد في الشبكة، بل تتوزع السلطة بين مختلف العقد، وهذا مايجعل الشبكات أكثر قدرة على العمل في بيئات معقدة

3- الانفتاح: الشبكات تنظيمات مفتوحة ،يمكن أن تنظم إليها عقد جديدة أو تنفصل عنها عقد أخرى، وهذا مايجعلها قابلة للتوسع على المستوى العالمي(كاستيلز،1996،ص470)

4- التدفقات: تعتمد الشبكات على تدفقات المعلومات والموارد بدل المواقع الثابتة، وهذا مايجعل المعلومات العنصر الأساسي في التنظيم (كاستيلز،1996، ص101)

ثامنا، العمل في التنظيمات الشبكية:

أدى ظهور التنظيمات الشبكية إلى تغير طبيعة العمل،فبدل العمل الثابت داخل مؤسسة واحدة،أصبح العمل يتم داخل شبكات من المشاريع وقد أدى ذلك إلى ظهور :

- العمل المرن،- العمل المؤقت،- العمل عن بعد،- العمل الشبكي

كما أصبح العمال جزءا من الشبكة بدل أن يكون جزءا من مؤسسة واحدة (كاستيلز،1996،ص268)

تاسعا، السلطة في التنظيمات الشبكية:

ترتبط السلطة في التنظيمات الشبكية بالقدرة على التحكم في تدفقات المعلومات وبالموقع داخل الشبكة ذاتها، ومن هذا المنطلق لم تعد السلطة تمارس من خلال الأوامر المباشرة بل أصبحت تتجسد في القدرة على برمجة الشبكات وربطها وتوجيه مساراتها.

1- تحول مفهوم السلطة في المجتمع الشبكي: إن التحولات التكنولوجية التي عرفها العالم منذ أواخر القرن العشرين لم تؤد فقط إلى ظهور أشكال جديدة من التنظيم،بل أدت أيضا إلى تحول عميق في طبيعة السلطة .ففي المجتمع الصناعي كانت السلطة مرتبطة بالمؤسسات الهرمية مثل الدولة أو المصنع،أما في المجتمع الشبكي فقد أصبحت السلطة تمارس من خلال الشبكات نفسها(كاستيلز،2009،ص45)

وبالتالي فإن السلطة في التنظيمات الشبكية لاتعتمد فقط على المنصب أو الموقع الاداري،بل تعتمد على القدرة على التأثير داخل الشبكة.

2- السلطة بوصفها تحكما في الشبكة: يؤكد "كاستيلز "أن السلطة في المجتمع الشبكي ترتبط أساسا بالقدرة على التحكم في الشبكات،أي القدرة على :إنشاء الشبكات،توسيعها،إعادة تنظيمها والتحكم في تدفق المعلومات داخلها. ويشير إلى أن الفاعلين الأقوياء هم أولئك الذين يستطيعون برمجة الشبكات وربطها بشبكات أخرى(كاستيلز،2009،ص47). وهذا يعني أن السلطة لم تعد قائمة فقط على السيطرة المباشرة ،بل على القدرة على تنظيم العلاقات داخل الشبكة.

3- البرمجة والربط كمصدرين للسلطة: يحدد "كاستيلز "مصدرين أساسين للسلطة في التنظيمات الشبكية وهما:

أ- سلطة البرمجة: تتمثل في القدرة على تحديد أهداف الشبكة وقواعد عملها،فالجهة التي تضع أهداف الشبكة تحدد أيضا اتجاها،وبالتالي تمارس سلطة غير مباشرة على بقية الفاعلين(كاستيلز،2009،ص48) وتظهر هذه السلطة في :إدارة الشركات الكبرى،تصميم المنصات الرقمية، وضع السياسات التنظيمية

ب- سلطة الربط: تتمثل في القدرة على ربط الشبكات المختلفة ببعضها البعض،فالفاعل الذي يستطيع الربط بين الشبكات يكتسب قوة كبيرة لانه يتحكم في تدفق الموارد والمعلومات(كاستيلز،2009،ص49)،ويظهر هذا النوع من السلطة في :الشركات المتعددة الجنسيات،شبكات الاعلام وشبكات الاتصال.

4- السلطة وتدفقات المعلومات: يرى "كاستيلز" أن المعلومات أصبحت المورد الأساسي للسلطة في المجتمع الشبكي،ففي التنظيمات التقليدية كانت السلطة تعتمد على: الملكية،الموقع التنظيمي،السلطة القانونية؛أما في التنظيمات الشبكية فأصبحت تعتمد على :المعلومات،المعرفة والاتصال وهذا مايجعل التحكم في المعلومات أحد أهم مصادر السلطة في التنظيمات الشبكية.

5- اللامركزية الظاهرية للسلطة:من الخصائص الأساسية للتنظيمات الشبكية أنها تبدو لامركزية،حيث تتوزع السلطة بين مختلف العقد،لكن "كاستيلز" يشير إلى أن هذه اللامركزية لاتعني غياب السلطة بل تعني إعادة تنظيمها. فالسلطة لاتختفي في الشبكات بل تنتقل إلى مستوى أخر حيث تصبح مرتبطة بالتحكم في تدفق المعلومات(كاستيلز،1996،ص471) وهذا يعني أن الشبكات قد تبدو ديمقراطية لكنها تخفي أشكالا جديدة من الهيمنة.

6- السلطة والهيمنة الشبكية:حسب "كاستيلز" أن الشبكات يمكن أن تكون وسيلة للهيمنة،خاصة عندما تسيطر جهات معينة على العقد الرئيسية في الشبكة؛فالجهات التي تتحكم في العقد المركزية تستطيع التأثير في بقية الشبكات ويظهر ذلك في : الشركات التكنولوجية،شبكات الاعلام والمؤسسات المالية، وبالتالي فإن السلطة في التنظيمات الشبكية ترتبط بموقع الفاعل داخل الشبكة.

بمعنى أن التحول نحو المجتمع الشبكي لم يؤد إلى إختفاء السلطة بقدر ما أعاد تشكيل أنماط ممارستها داخل فضاءات تنظيمية جديدة تقوم على تدفقات المعلومات والاتصال، ومن هذا المنطلق تتجلى الهيمنة الشبكية بما يسمح لهم بتوجيه تدفقات وتحديد أولويات العمل واستبعاد بعض الفاعلين أو تهميشهم، وهو مايجعل الشبكة تبدو ظاهريا فضاء مفتوحا وأفقيا،لكنها في الواقع تخضع لأشكال غير مرئية من السلطة.كما أن هذه الهيمنة لاتمارس فقط عبر الأوامر المباشرة،بل من خلال التحكم في المعاني والرموز والمعلومات التي تنتقل داخل الشبكة،الأمر الذي يمنح الفاعلين المهيمنين قدرة على التأثير في القرارات والسلوكات التنظيمية دون الحاجة إلى فرض سلطة سلطة رسمية واضحة، وبذلك تتحول السلطة الشبكية إلى نمط من الهيمنة المرنة التي تقوم على التحكم في التدفق بدل التحكم في الأفراد وعلى التأثير غير المباشر بدل الاكراه الصريح.

7- السلطة والفاعلون داخل الشبكة: يعتبر "كاستيلز" أن الفاعلين داخل الشبكة ليسوا متساوين في القوة،فالفاعلون الأقوياء هم الذين يملكون المعلومات،الذين يتحكمون في العقد الرئيسية والذين يستطيعون الربط بين الشبكات. وبهذا فالفاعلون داخل الشبكة لايتمتعون بمستويات متساوية من النفوذ،حيث تحتل بعض العقد مواقع مركزية تُتيح لها التحكم في الاتصال والتنسيق،وتظل عقد أخرى هامشية ذات تأثير محدود،وهو مايؤدي إلى تشكيل بنية غير متكافئة من العلاقات داخل التنظيم الشبكي.

خاتمة:

بناء على ماسبق فإن دراسة التنظيمات الشبكية عند "كاستيلز " لاتقتصر على تحليل شكل تنظيمي جديد،بل تمثل محاولة لفهم التحولات البنيوية التي يشهدها المجتمع المعاصر،أين أصبحت الشبكات تمثل المنطق التنظيمي السائد الذي يعيد تشكيل المؤسسات والسلطة والعلاقات الاجتماعية في عصر المعلومات.

... بالتوفيق مع المحاضرة القادمة ...